أنسنة الطلل في الشعر الجاهلي

الأستاذ: أحمد بن بغداد

المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي

تيسمسيلت

الملخص:

يتخذ الطلل في الشعر الجاهلي صور متعددة تضفي على النص الشعري بنية شعرية ،تفرض على الشاعر الخضوع إلى نسقها لتتحول إلى بنية لغوية ،تتجلى فيها ذات الشاعر بأسمى صورها ،مبرزة العلائقية التي تشد أزر الشاعر المتهافت على الأمكنة بمختلف مواقعها ،محاولا في ذلك بعث حركة دؤوبة وحياة متجددة على هذه الأماكن التي دبّ فيها الخراب وأحاطها الموت من كل فج ،ومن هنا غدت أحد المواضيع القادرة على سبر أغوار القصيدة ،وما يثير قارئ المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي هي عملية تكليم الطلل الذي مافتئ يشكل استراتجية تداولية في النص الشعري الجاهلي حتى تراءى لقارئ الشعر الجاهلي وأن الشاعر يتحدث إلى إنسان، وهنا بدا واضحا أن محركات هذا الحديث تنطوي على أبعاد نفسية وتاريخية.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجاهلي ; الطلل ;المقدمة الطللية ;الشعر العربي

1-شعرية تشخيص الطلل:(poetecite de personnification)

إنّ تحول اللغة من مركز التقرير المباشر إلى التشخيص (***personnification***) يحمل في طياته الكثير من الدلائل لدى الشاعر، فمن جهة يؤكد على أنّ الشعر، يعتمد في تمفصلاته على لغة شعرية تغرس معانيها وصورها في نطاق الرمز والاستعارة، وهي الأهداف التي يروم الشعراء إصابتها، حتى تستقطب هذه اللغة مرأى الدارسين وتستدعي اتخاذ وسائلهم التحليلية من أجل إبراز مكوناتها.

يقول زهير بن أبي سلمى:

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا أَلَا أَنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِي[1]

يلجأ الشاعر إلى تشخيص المكان بعد فقدان الأهل والأحبة، ويأتي اختياره لهذا الأسلوب من أجل تخفيف الألم والمعاناة ودفع المنية عن أسواره ، ومن هنا عمد إلى تشكيل شعر غير مألوف، وهو تشكيل أقدر على تجسيد النزعة العاطفية والوجدانية، التي يظهر الشاعر من مواجهة شيء خارق وعظيم، وهذا تصوير يخترق حدود الواقعية إلى أن تصبح اللغة لغة متخيّلة تتجاوز العادي والمألوف وتجسد الرؤية الانفعالية التي تسيطر على الشاعر[2] رغبة في تخطّ واقع تقريراته بدت غير واضحة المعالم، فاللغة التّقريرية تفقد نكهتها وتعجز عن حفظ أسرار الشاعر ومكنوناته الرامية إلى تطليق ما هو واقعي والاعتماد على الطابع التخييلي الذي يُرجِعُ لهذه اللغة مصداقيتها ويدفع بها إلى توطيد جماليتها عبر مدونة الشعر

العربي الجاهلي الذي اتُّهِم بلغته المبهمة التي لا تقدر على أداء وظيفتها في معالجة قضايا عصر الشاعر الجاهلي، وأنها تبتعد كلّ البعد عن المساءلة النفسية للإنسان الجاهلي.

يقول زهير بن أبي سلمى:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّم بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالمُتَثَلِّمِ [3]

لم تعد ظاهرة الطلل نفسية بالدرجة الأولى تحمل الشاعر على تبنّي خطاب الواقع، وانكسار سيكولوجي أمام خلوّ الديار من ساكنيها وإنّما ظاهرة ذات أبعاد إنسانية، طفحت فيها اللغة التقريرية المباشرة، لتعوضها اللغة التعبيرية الإيحائية، لذلك ألفينا استخدام الشاعر للنداء للارتقاء باللغة إلى برّ المحاكاة (***IMITATION***) ومن ثمّ اتّخاذها العالم الموازن والمعادل لعالمه الحقيقي، حيث يلجأ فيه الشاعر إلى الاستعانة بمعجمه اللغوي الذي يسمح له بتجاوز النكسات الفردية والجماعية التي ظلت تؤرق حياته، فانساق يستدعيها لتوظيفها في سياقها المعرفي.

ولعلّ النّداء الذي اهتدى إلى الاستعانة به، يقرب فيها الشاعر الأشياء الجامدة إلى المجال الإنساني "وفي حقيقة الأمر فإنّ استخدام النداء في مثل هذا السياق يكشف عن قدرة الشاعر على تجاوز العادي والمألوف والارتقاء باللغة إلى الدرجة الإيحائية والتعبيرية، فلو أراد الشاعر أن يكون مباشرا وتقريريا لمّا توجه إلى الطلب بالنداء، لأنّ الإيحائية التي تبرز من خلال خطابه الطلل تجنب الشاعر استخدام اللغة المباشرة والتقريرية لتجعل لغته لغة متوهجة تثير في نفس القارئ تساؤلات كثيرة ومتعددة وهذه هي قيمة مثل هذا الأسلوب"[4]، الذي طفا على سطح مدونة الشعر الجاهلي، فأمكن تسوية بنان القصيدة الجاهلية، وغدا خطاب الشاعر تشخيصيا (***persona***)، إذ اضطر إلى استبدال مواصفات الجماد وتعيين مكانها مصطلحات تعبيرية تضفي على الطلل صورة إنسانية ممجدة، لأنه كلما نبضت الحياة في الحيوانات أو الجماد كان ذلك أنسب وأقرب إلى حضور الغائبين عن الديار ، مما يفتح المجال أمام الشاعر على تغليب الحضور على الغياب.

يقول زهير بن أبي سلمى:

لَا الدَّارُ غَيَّرَهَا بُعْدُ الأَنِيسِ وَلَا اللَّارُ لَوْ كَلَّمَتْ ذَاتَ حَاجَةٍ صَمَمُ [5]

يحاول الشاعر البحث عن قاسم مشترك بينه وبين الطلل ليخفي عن هذا المكان صفات الموت، ومن هنا يحتاج إلى تبديل الموتيفات التي أضحى المكان يمتلكها، فاختار لغة تختزن بين طياتها رسما امبريقيا، وبذلك يصبح المكان مجموعة علامات لها دلالات إيحائية خارج العرف اللغوي [6]، تمتاز بقدرتها على تجاوز الواقع لتسكن بواطن الخيال الذي بدوره يلجأ إلى إنتاج الرمز القادر على خلق فضاء لغوي مغلق على حياة الشاعر ينفتح على المستوى الأسلوبي لخطابه الدلالي.

تتلقّى الأطلال معاملة خاصة من قبل الشاعر فمن سكونها وجمودها يتحول بخطابه إلى مناد لجعلها تنبض بالحياة، يرتقي بجدرانها المهدمة وسقفها المتهاوي ومياه الأمطار التي رسمت نقوشا على هذه الأرض إلى كائن يستمع آهات الشاعر الملطّخة بماض فصل مسبقا بزوال الأحبة والأهل، وليعيد للطلل نشاطه الانفعالي، وميسمه الإنساني عمد إلى فكرة نفخ روح علاقات التواصل الشعوري، فلجأ الشاعر إلى بعث صور التآزر الإنساني بينه وبين الطلل، وكأنّ

الهدف من ذلك هو قتل صفة السكون والموت وتلاشي الزمن" لأنّ الوعي سمة ذات مردود كبير على من يتّصف بها لأنّها تمكنه من معرفة الحقائق والأمور، والالمام بها، ورصد العلاقات الإنسانية المتغيرة[7].

إنّه الاختيار الأنسب والتغيير الأقرب لصنع عالم متوازن بين الطلل والشعر، تتعاظم فيه مكانة الديار الدارسة وتزول فيه الفوارق اللاإنسانية وتختفي فيه الخطابات العدائية" وحسن تصرّف المكان الواعي يتجلّى وقت الأزمة الصعبة حين تتغيّر المفاهيم والسّلوكيات وتختلط الأمور وتتداخل" [8] فالنّفي الجسدي لا يعتبر الاختيار الأمثل لإبعاد كلّ ما من شأنه أن يمسّ الطّلل بسوء وإنّما هو مخرج ومنفذ استثنائي يستنجد به الشاعر في الظروف والحالات النفسية الطارئة المأزومة ولكن في كل الحالات تبقى إنسانية الطلل وشحنه بالحركية بعيدا عن الجمود أهم مسلك وأوضح بيان لإعادة أنطولوجية المكان ومن ثمّ فض الاغتراب عنه "والعلاقة بين الانسان والمكان علاقة أسطورية تقوم على تشابك الكائنات ببعضها البعض من جماد ونبات وحيوان، فجميعها تتوحد في دورة الحياة" [9].

فمتى انصهرت هذه العناصر مع بعضها البعض ،كان ذلك عائقا أمام أي تأثير خارجي ، إذ بقدر ما تتساوى كلّ الكائنات أمام المكان، يفضي ذلك إلى إسقاط جبروته وتحقيق التوازن النفسي لدى الشاعر. ليبقى بلغته السحرية واثقا من الحصول على مبتغاه وهو تكليم هذا الطلل،إن في اللحظة الزمنية الراهنة أم المستقبلية، فكل شيء يتوقف على الإشارات الدلالية التي طفق يستخدمها ويوظفها ،فهي القادرة على استمالة المكان من اجل البوح بأسراره وكشف أحداثه الراكدة في قاع ماضيه.

تتمحور غاية الشاعر من تحويل الجماد إلى حيٍّ في استنطاق كوامن الذات الراغبة في تحطيم قيود الطبيعة وإبراز قدرتها على تجاوز اللاممكن، وبالتالي قد يطرح التشخيص عند الشاعر على مدى انفعالية الموقف أمام الطلل، "وكأنّ التشخيص حركة تحويلية ذات مدرج واحد فقد ترتقي بالجامد إل الحي لغاية تعبيرية ثمّ تتوقف عند هذا الحدّ من الجهد والاجتهاد" [10]

فمن الطبيعي تحرّك القوى النفسية والانفعالية للشاعر أمام المكان الذي فقد هويته الزمانية والتاريخية، فنظر إلى كلّ أرجائه، فاستنتج أنّ الموت قد دكّ كلّ أرجائه فلم يكن أمامه إلا الاستعانة بلغته التعبيرية والإيحائية من أجل تحويل الجماد إلى طاقة إنسانية فتتواشج آلة الشاعر التعبيرية مع المكان الذي ينقلب سكونه وطغيانه النفسي إلى مودّة بينه وبين الشاعر، إنّها الهدنة الانفعالية التي ينشدها الشاعر للمكان، يقول عنترة:

يا دَارَ عَبْلَةَ بِالجَوَّاءِ تَكَلَّمي وعِمِي صَبَاحًا دَار عَبْلَةَ واسْلَمِي [11]

إنّ محاولة استنطاق الطلل والرسم يحمل في طياته هموم الشاعر الذي تخطّى في مخاطبته الطلل واقعه والتمس من الاستعارة سبيلا للتأكيد على عمق المعاناة التي أطلقها في جوف لغته الشعرية "وتأتي الاستعارة للتعبير عن رؤية الشاعر، فالذّات هنا قد تألمت لفراق صاحبها، وبفقده أصبحت الذات مهمومة لا تكاد تلامس الرض ليلا ولا تكاد تستقر داخل الجماعة نهارا، فالأرض شاهدة على قلقها واضطرابها، ولو سمحت له القدرة بإنطاق الأرض لباحت بما عندها من معرفة يقينية حول الذّات" [12].

ففي استخدام الشاعر للبنية الاستعارية (ولا الدار لو + كلّمت) تجسيدا لأمنية لن تتحقّق وتعدّ كلمة (كلّمت) مركز الاستعارة وموطنها، وفي هذا التمركز والتموقع يكون التوتر والخروج عن المألوف.

ويهدف الشاعر في استخدامه للبنية الاستعارية "لتشخيص ما هو غير إنساني لتقريب صورته ونقله إلى عالم مدرك محسوس" [13]، حتى يخفف من غور الجرح ووطأته الذي بات لا يندمل بسرعة، نظرا للرؤية البصرية غير المتغيرة التي اعتادت رؤية المكان يفترش المنية ويلقي بحبه كلّ متثاقل لم يسرع في مغادرة المكان، وانطلاقا من ذلك فقد بادر الشاعر إلى الاستعانة بلغة وظيفية تقرب الواقع أكثر من ذي قبل تنتمي إلى معجمه الشعري، وتقبع في حقله الدلالي، لغة متمرسة تصطاد عناصر الحياة، تشدّ أزر مقامه الانفعالي، "لغة بكل نظامها تتصل اتصالا وثيقا بالحياة تحاكيها، وتتغلغل فيها". [14]

2-جمالية أنسنة الطلل:

تداخلت قوى الطبيعة أمام الطلل ،فانهارت أعمدته فصار مجرد بقايا نؤي وأحجار لا تضر ولا تنفع وتدافع الزمن على أرجائه فساق الشاعر إلى ماض تليد ،حضرت فيه الحركية التي دبّت في هذا المكان ،الذي شهد الحياة ،ليتحول إلى مشهد مخيف ينبئ على النهاية التي نخرت ذهن الشاعر ،أمام هذا العجز والموقف الرهيب والمريب الذي تسارعت وتيرته في وجدان الشاعر ، كان من الضروري عليه إلقاء الروح عليه ومساءلته لعلّه ينهي الجدل القائم حول غياب الأهل والأحبة ،ومن ثم تحليل جدلية الزمن الذي زرع الموت في ثنايا الطلل.

يقول النابغة الذبياني:

وَقَفْتُ فيهَا سَرَاةَ اليَوْمِ أَسْأَلُهاَ عَنْ آل نِعْمَ أمونا عَبْرَ أَسْفَار

فاَسْتَعْجَمَت دّارُ نِعْمَ ما تُكَلِّمُنا والدَّارُ لَوْ كَلَّمَتْنا ذَاتَ أَخْبَارِ[15]

إن الحياة لم يكتب لها الاستمرار بين جدران تلك الأطلال ،وبعد افتقاد الشاعر لأهم العناصر التي كان يتوفر عليها المكان ،اتخذ سبيلا آخر ،فانتدب الشاعر مكانا ،كلّم فيه الطلل وحاوره ،فتسامت صور الوعي وسطه ،عندئذ اختار هذا الحديث المباشر مع الطلل من أجل عدم فك الارتباط بينه وبين الأهل والأحبة ،كما لا يخفى على الشاعر أن الوسيلة المعتمدة في تقريب الطلل وإلباسه صفة الوجدان الإنساني ينطوي في دائرة اخفاء ذلك الخوف والفزع الذي انسلّ إلى وجدان الشاعر الأمر الذي جعله يبحث عن طريقة مثلى لإجلاء حالة القلق المنبعثة من تجاعيد الوجدان ، لبث صورة جمالية في وسط هذا الجماد"ولعل الجمالي من أهم أشكال الوعي الإنساني، وتنجم أهميته عن مساهمته في إغناء الجانب المعرفي في وجودنا"[16] ،يختزن الطلل رؤى معرفية دلالية استوطنت في مخيلة الشاعر ،استدعاها لإخراجه من دائرة العزلة التي أطبقت على المكان ،فانبعثت منه رائحة الموت "فالكثافة الوجدانية حين تصل بالشاعر إلى درجة الإخفاق ينفجر ينبوعه الشعري عن خوالج نفسه ،فيلجأ إلى تفريغ مخزونه الداخلي عن طريق محاورته للطلل ،ليبث في قوالبها كل المعطيات البيئية والاجتماعية والنفسية"[17]ويلعب الخيال دورا هاما في عملية إنتاج الصور ،حيث يلجأ الشاعر أحيانا إلى بث الروح في "الجمادات لتحاكي أفعال البشر ،لأن لها دماء-كما تخيلها الشاعر – تدبّ في شرايينها كما لهم ،ولهذا

اكتسبت عنده صفات آدمية فيها المسالمة والمخاصمة والمجاهدة "[18]فللخروج من سجن الاغتراب والوحدة ،أنشأ الشاعر حوارا بينه وبين الطلل من أجل كسر جدار الصمت الذي غزا المكان وتركه في دوامة التساؤلات .

يقول تميم بن مقبل العامري:

عَرَّجْتُ فِيهَا أُحَيّيهَا وأَسْأَلُها فَكُدنَّ يُبْكِينَني شَوْقاً ويَبْكِيينا [19]

يختار الشاعر أسلوب أنسنة الطلل عادة ،لإظهار ما علا نفسه من أدران تتعلق بالدرجة الأولى بالحالة السيكولوجية التي تجلت في بواطن الذات ،ملمحا إلى هاجس التوجس الذي طبع حالته والمتمثل في ظهور علامات الاندثار الذاتي والجماعي التي خيمت على المكان "إن الأنسنة HUMANISM هي خاصية جمالية بارزة من خواص الأدب والفن ،وتعني أن يقوم الأديب أو الفنان بنقل صفات البشر كالتفكير والكلام والحركة إلى الكائنات الأخرى مثل الحيوانات أو الزمان أو الجماد ،إذ يقوم الشاعر من خلالها بإسقاط ما يجول في نفسه من مشاعر وأحاسيس على تلك الكائنات ،لكون الأنسنة أكثر تأثيرا في المتلقي ومن ثم أكثر توصيلا لرسالة المبدع[20].

يقول عنترة:

دَّارٌ لآنِسَةِ غَضِيضِ طَرفُهَا طَوعُ العِنَانِ لَذِيذَةُ المُتَبَسِّم[21]

خاتمة:

مهما بلغ الشاعر من أمر حديثه إلى الطلل ،تبقى تبعات الزمن والمكان إحدى الإحداثيات التي فرضت هيمنتها على القصيدة العربية الجاهلية وخاصة ما تعلق منها بالطلل ،فانتقى الشاعر لها أسلوبا إبداعيا رام فيه مجاراة عنجهية الغربة والوحدة ومن ثم تحقيق المعادلة النفسية التي سعى إلى توطيدها في ثنايا القصيدة الجاهلية ،كما أن عنصر الغياب الذي تداعى وسط هذا الطلل أفرز على الشاعر اختيار الحديث إلى الطلل وأنسنته كبديل جمالي لاختراق الوحدة والرحلة التي أضحت تنسج خيوطها في المقدمة الطللية.

الهوامش:

1- زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح وضبط عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، دت، ص65.

2- موسى ربابعة، تشكيل الخطاب الشعري، دراسات في الشعر الجاهلي، دار جرير، الأردن، ط2، 2005، ص92.

3- المرجع السابق، ص55.

4- موسى ربابعة، تشكيل الخطاب الشعري، دراسات في الشعر الجاهلي، ص20.

5- زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص78.

6- علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001، ص160.

7- مرشد أحمد، أنسنة المكان في رواية محمد الرحمان المنيف، دار الوفاء، ط2، الاسكندرية، ص13.

8- المرجع نفسه، ص14.

9- ابراهيم خليل، بنية النص الروائي، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1، 2010، ص143.

10- حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2011، ص52.

11- الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار الآفاق، الجزائر، الجزائر، دت، ص103.

12- محمد الخليل الخلايلة، بنائية اللغة الشعرية عند الهذليين، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2004، ص256.

13- المرجع نفسه، ص256.

14- مها نقدي، تحليل النص الشعري، تر. محمد احمد فتوح، النادي الأدبي الثقافي، السعودية، ط1، 1999، ص54.

15-أبو زيد القرشي ،جمهرة أشعار العرب، شرح وضبط ،عمر فاروق الطباع ،دار الأرقم ،لبنان (دت)ص96.

16-أحمد محمود خليل،في النقد الجمالي ،رؤية في الشعر الجاهلي،دار الفكر ،دمشق ، 1996،ص24.

17-عبد الله خضر أحمد، أسلوبية الإنزياح في شعر المعلقات ،عالم الكتب الحديث ،الأردن ،2013ص180.

18-عبد القادر الرباعي ،الصورة الفنية في شعر أبي تمام ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،ط2، 1999،ص180.

19-أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب ،شرح وضبط ،عمر فاروق الطباع ،دار الأرقم ،لبنان ،(دت)، ص254.

20-عبد الله خضر أحمد ، أسلوبية الإنزياح في شعر المعلقات ،عالم الكتب الحديث ،الأردن ط2013،1،ص178.

21-أبو زيد القرشي ،جمهرة أشعار العرب ،شرح وضبط ،عمر فاروق الطباع ،دار الأرقم ، لبنان ،(دت) ،ص143.